الفصل الثانى

الجاحظ فى عصره

١ – حياة الجاحظ

(١) أصل الجاحظ وطلبه للعلم :

اختلف المؤرخون فى أصل الجاحظ وفى تعيين سنة ميلاده ، وقالوا فى ذلك أقوالا مضطربة . فذهب بعضهم إلى أنه من أصل عربى ، وذهب بعضهم الآخر إلى أنه من العناصر الإفريقية التى تداخلت فى العنصر العربى ، والفريقان ينسبانه إلى كنانة أصيلا أو مولى . وقد أجمع المؤرخون من مثل ابن الأنبارى وابن عساكر وياقوت الرومى وغيرهم على أن الجاحظ كنانى ليثى نسبة إلى ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة ؛ وقالوا إنه كان مولى أبى القلمس عمرو بن قَلَع الكنانى[١] . وكان جده أسود يقال له فزارة ، وكان جمّالا لعمرو بن قلع الكنانى . أما كنيته فقد قال أبو بكر العمرى : سمعت الجاحظ يقول : « نسيت كنيتى ثلاثة أيام ، فأتيت أهلى ، فقلت : بمَ أكنى ؟ فقالوا : بأبى عثمان » .

ولد أبو عثمان عمرو بن بحر ، الملقب بالجاحظ لبروز عينيه من حلقتيهما الواسعتين ، فى البصرة نحو سنة ٧٧٥ م – ١٥٩ هـ . وتوفى والده وهو بعد حديث السن . ولما شب طلب العلم أولا فى الكتّاب مع أولاد القصابين ، ثم راح يتعيّش بعمل يديه فيبيع الخبز والسمك بالبصرة وهو لا يألو جهداً فى طلب العلم ومطالعة الكتب[٢] . وكانت البصرة لذلك العهد أكبر حواضر العلم والأدب بعد بغداد ، يجتمع فى مسجدها طائفة حسنة من العلماء وأرباب النحو واللغة

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء ١٦ ص ٧٤ .

(٢) المصدر نفسه .

والأدب عُرفوا « بالمسجديين[١] » ، فأقبل إليهم الجاحظ يجالسهم ويأخذ عنهم الكثير بفضل ذكائه المتوقد وحافظته القوية ؛ وما إن أيفع[٢] حتى تلقى الفصاحة وأسالِيب التعبير شفاهاً عن خطباء العرب فى المربد[٣] وقد ألف التردّد إليه منذ حداثته . وكان إلى ذلك يكترى[٤] حوانيت الوراقين ويبيت فيها أحياناً للمطالعة[٥] .

ولما اجتمع له قدر صالح من العلم والأدب قصد بغداد واتصل فيها بالكبار من رجال الدين وعلماء اللغة .

وتردد إلى مجلس الأدباء من مثل ابن وهب وابن الزيات ، فوجد عندهم ، على ما قال هو نفسه ، ما لم يجده عند مشايخه الذين أخذ عنهم الشعر والأدب ، وبهم عرف ماهية الشعر وقام بحق الأدب والكتابة .

(ب) الرجل الكاتب والعالم :

ظل الجاحظ يزاول فنون الأدب والأخبار واللغة والحكمة والكلام ، ويُعمل الفكر ويُحلّل ، ويتوسع فى ما حصّله ، حتى تمت له ثقافة راقية ، وتنبه عقله ، فتمكن من التعرض لقضايا خطيرة فى الدين ، وكان له مذهب وأتباع ؛

(١) «المسجديون» قوم اتخذوا المسجد منتدى لهم وطال غشيانهم له فعرفوا به ونسبوا إليه ... وكانوا خليطاً من الناس منهم الشعراء ومنهم الرواة ومنهم مصطنعو الحكمة . . . وكانوا لا يفرقون فى فن ولا يتقيلون بنوع من العلم . . . ويظهر أن هؤلاء المسجديين كان لهم أثر غير قليل فى التوجيه الأدبى لكثير من أدباء ذلك العهد، ففى أخبار أبى نواس أنه لما شب وكبر صحب أهل المسجد والمجان، وأكبر الظن أن المقصود بأهل المسجد هم المسجديون وكذلك الجاحظ كان مجلسه فى أول أمره إلى هؤلاء المسجديين . (البخلاء . تحقيق طه الحاجرى) .

(٢) أيفع الغلام : ترعرع وناهز البلوغ فهو يفع ويافع .

(٣) المربد : سوق قرب البصرة كان يختلف إليه الشعراء والخطباء وهو متسع كانت الإبل تربد فيه أى تربط للبيع، وهو مجتمع العرب ومتحدثهم . وأشهر أسواق العرب : « عكاظ » بين نخلة والطائف و « مجنة » على أميال من مكة و « ذو المجاز » بمعنى خلف عرفات .

(٤) يكترى : يستأجر.

(٥) طالع المنتخبات ص ٥٠ .

وشرع يؤلف الكتب ، وكان فى أول أمره ينسبها إلى ابن المقفع[١] وسهل بن هارون حتى تسير .

فقد روى المسعودى فى كتابه « التنبيه والإشراف» أن الجاحظ كان يقول : « كنت أؤلف الكتاب الكثير المعانى ، الحسن النظم ، وأنسبه إلى نفسى فلا أرى الأسماع تصغى إليه ، ولا الإرادات تتيمم نحوه ، ثم أؤلف ما هو أنقص منه رتبة ، وأقل فائدة ، وأنحله[٢] عبد الله بن المقفع أو سهل بن هارون ، أو غيرهما من المتقدمين ممن صارت أسماؤهم فى المصنفين ، فيقبلون على كتبها ، ويسارعون إلى نسخها ، لا لشىء إلا لنسبتها للمتقدمين ، ولما يداخل أهل هذا العصر من حسد من هو فى عصرهم ومنافسته على المناقب التى عُنى بتشييدها » .

وما إن كان القرن التاسع (الثالث الهجرى) حتى طارت للجاحظ شهرة كبيرة بين كتاب عصره ، وترامت تلك الشهرة إلى أذن المأمون — وقد قرأ للجاحظ « كتاب الإمامة » وأعجب به — فاستقدمه وسأله أن يكتب له رسالة فى العباسية والاحتجاج لها .

ولما رأى المأمون ما للجاحظ من مقدرة على الكتابة ومن سعة فى الثقافة ، أراد أن يسند إليه ديوان الرسائل وهو من أهم ما يدور عليه محور السياسة العامة للدولة لا يتولاه إلا الحاذق الذى ضرب بالسهام الوافرة فى مختلف العلوم والآداب ، وصاحب السياسة والتدبير ، والمتفوق فى صنوف البلاغات وضروب الإبانات. غير أن الجاحظ لم يمكث فى ذلك المنصب سوى ثلاثة أيام[٣] ؛ وكأنه لم يستطع الخضوع لنظم الدواوين وما يقتضيه سير العمل فيها ، ولا تمكن فى الإقلاع عن العبث فى عمل يتطلب الرصانة والوقار ، ولا احتمل منافسة الحساد

---

(١) طالع المنتخبات ص ٤٩ — ٥٠ .

(٢) أنحله : أنسبه إلى .

(٣) ياقوت : معجم الأدباء ، الجزء ١٦ ص ٧٨ — ٧٩ .

الذين ثارت عليه حفائظهم[١] خوفاً على شهرتهم ومنزلتهم فى الدولة ومجالس الأدب. وكان سهل بن هارون يقول : « إن ثبت الجاحظ فى هذا الديوان أفل نجم الكتاب » .

خرج الجاحظ من ديوان الخليفة وآثر أن يعيش مطلقاً من كل قيد. وما هى إلا سنوات حتى اتصل اتصالا مكيناً بمحمد بن عبد الملك المعروف بابن الزيات وزير المعتصم ثم الواثق من بعده. وكان ابن الزيات من أكابر رجال الأدب والسياسة ، فكتب له الجاحظ ، ومدحه ، وأهداه « كتاب الحيوان[٢] » فأجازه الوزير بخمسة آلاف دينار . وفى تلك الأثناء قام الجاحظ بأسفار إلى دمشق وأنطاكية وربما وصل إلى مصر أيضاً ، فزادته الأسفار والضرب فى الآفاق اطلاعاً وسعة معرفة ، ومهرت خياله بصور جديدة .

ولما مات الواثق وتولى المتوكل ، كان فى نفس المتوكل من ابن الزيات شىء ، وقد جرى سنة ٨٤٧ م أن منافس ابن الزيات ، القاضى أحمد بن أبى دُؤاد ، استمال الخليفة ، وهو عدوّ المعتزلة والحرية الفكرية ، فأسقط ابن الزيات وفتك به . فهرب الجاحظ ، ولكنه قُبض عليه. وقد جاء فى معجم الأدباء لياقوت[٣] عن أبى عبد الله المرزبانى أنه قال : « حدث إسحاق الموصلى وأبو العيناء قال : كنت عند أحمد بن أبى دؤاد بعد قتل ابن الزيات ، فجىء بالجاحظ مقيداً ، وكان من أصحاب ابن الزيات ، وفى ناحيته ، فلما نظر إليه قال : "والله ما علمتك إلا متناسياً للنعمة ، كفوراً للصنعة ، معدّداً للمساوى ، وما فُتّنى باستصلاحى لك ، ولكن الأيام لا تُصْلح منك إلا لفساد طويتك ، ورداءة داخلتك ، وسوء اختيارك ، وتغالب طبعك" . فقال له الجاحظ : خفّض عليك ، أيدك الله ، فوالله لأن يكون لك الأمر علىّ خير من أن يكون

(١) الحفائظ جمع حفيظة : الغضب والحمية فيما يحفظ .

(٢) طالع ص ٣٧ من هذا الكتاب .

(٣) الجزء السادس عشر ص ٧٩ .

لى عليك ؛ ولأن أسىء وتحسن أحسن عنك من أن أحسن فتسىء ؛ وأن تعفو عنى حال قدرتك أجمل من الانتقام منى . فقال له ابن أبى دؤاد : قبّحك الله ، ما علمتك إلا كثير تزويق الكلام ، وقد جعلتَ ثيابك أمام قلبك ثم اصطفيت فيه النفاق والكفر ، ما تأويل هذه الآية : ﴿ وكذلك أخْذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخْذه أليم شديد ﴾ ؟ قال : تلاوتها تأويلها ، أعز الله القاضى ؛ فقال : جيئوا بحدّاد . فقال : أعز الله القاضى ، ليفكّ عنى أو ليزيدنى ؟ فقال : بل ليفك عنك . فجىء بالحداد ، فغمزه بعض أهل المجلس أن يعنف بساق الجاحظ ، ويطيل أمره قليلا . فلطمه الجاحظ ، وقال : اعمل عمل شهر فى يوم ، وعمل يوم فى ساعة ، وعمل ساعة فى لحظة ، فإن الضرر على ساقى ، وليس بجزع ولا بساحة[1] ؟ فضحك ابن أبى دؤاد وأهل المجلس منه .

وقال ابن أبى دؤاد لمحمد بن منصور وكان حاضراً ؛ أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه ، ثم قال : يا غلام ، صِر به إلى الحمام ، وأمط عنه الأذى ، واحمل إليه تخت ثياب وطويلة ، وخفاً ؛ فلبس ذلك ، ثم أتاه فتصدر فى مجلسه ، ثم أقبل عليه وقال : هات الآن حديثك يا أبا عثمان ! »

وقدم الجاحظ لابن أبى دؤاد كتاب البيان والتبيين[2] » فأعطاه فيه ابن أبى دؤاد خمسة آلاف دينار . ولما فُلج القاضى وخلفه فى القضاء ابنه أبو الوليد لزمه الجاحظ إلى أن صرف عن القضاء سنة ٨٥١ م .

واتصل الجاحظ بالفتح بن خاقان وزير المتوكل ، وقدّم له بعضاً من كتبه منها « كتاب مناقب الترك وعامة جند الخلافة » . وكانت بين الرجلين

---

(١) ساجة واحدة الساج : شجر عظيم صلب الخشب جمعه : سيجان . ويطلق الساج على الخشب مطلقاً .

(٢) طالع ص ٣١ من هذا الكتاب .

مودة ومراسلة . وطالما أثنى الفتح على الجاحظ عند المتوكل وأخذ له الجوائز ؛ إلا أن المتوكل لم يقرّبه منه لدمامة خلقه .

(ج) الشيخ العليل :

واشتدت وطأة السنين على الجاحظ ووهنت قواه ، وأصيب بفالج نصفى ، فعاد إلى البصرة حيث لزم بيته سجين الهرَم . حدث المبرّد قال : « دخلت على الجاحظ فى آخر أيامه ، فقلت له كيف أنت ؟ فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج لو حز بالمناشير ما شعر به ، ونصفه الآخر منقرس[1] لو طار الذباب بقربه لآلمه ، وأشد من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيها »[2] .

وهرع العلماء والأدباء إلى زيارة الشيخ العليل ، معلم العالم العربى بمجمله ، وتوافدوا من البصرة وبغداد وسواهما من البلدان ، وكان المبرد صاحب « الكامل » من جملة الزائرين .

وأخذ ذلك المصباح يخبو شيئاً فشيئاً ، وأخذ نوره يتضاءل حتى انطفأ تاركاً فى البلاد نور العلم والثقافة الواسعة . وهكذا مات الجاحظ معلم العقل والأدب سنة ٨٦٨ م — ٢٥٥ هـ . وقد انهالت عليه الكتب يوماً وهو جالس بينها يقرأ فقضت عليه[3] . لقد لحدته ميتاً بعد أن كانت سلوته فى حياته وشغله الشاغل إلى ساعة مماته .

---

(١) أى مصاب بالنقرس : داء يأخذ فى الرجل ويقال هو ورم يحدث فى مفاصل القدم وفى إبهامها .

(٢) معجم الأدباء الجزء ١٦ ص ١١٣ . — ابن خلكان : وفيات الأعيان الجزء ١ ص ٤٩١ .

(٣) شذرات الذهب ٧ : ١٢٢ .

٢ ـ شخصية الجاحظ

(ا) شخصيته الأخلاقية :

إن من استقرى أخبار الجاحظ وقلب صفحات آثاره وقف على شخصية عجيبة فى انفتاحها واتساعها وغنى ما لديها من طاقة ووسائل . ولئن كان الجاحظ قبيح المنظر ، مشوه الوجه ، ناتئ العينين ، لقد جمع إلى قبح الخارج صفات كثيرة جعلت منه رجل العصر ، يروق الكبير والصغير والعالم والجاهل . كان مطبوعاً على الظرف والفكاهة ، ينظر إلى الأمور نظراً لا اكتراثياً ، ليس هو نظر السوداوى ولا نظر العصبى ؛ وكان أميل إلى التفاؤل منه إلى التشاؤم ، يبدو عليه السرور وحب الدعابة وخفة الروح ، وينظر إلى الأمور كما هى فى واقعيتها كما ينظر إلى الناس نظر الخبير بأطباعهم وأخلاقهم فيحاسن الكبراء دون إسفاف ، ويجتنب مخاشنتهم تفادياً من شرهم ، ويحلم عن الأشرار طبعاً وتطبعاً ، ويبتعد عن الحاسدين للتخلص من أشراكهم . وهو أبداً لطيف المعشر ، حلو الحديث ، حسن المحاضرة ، حاضر الجواب ، سريع النكتة ، ساخر وسخره ناعم(١) . وكان إلى ذلك يحب اللهو وسماع القيان والمغنين ، لا يأنف إلا مما يضيع الوقت سدى ، والوقت عنده أثمن من المال ، يحرص عليه الحرص الشديد .

(ب) شخصيته الثقافية :

كان الجاحظ ذا ثقافة واسعة جداً تجعل منه دائرة معارف حية ، فقد وعى فى صدره جميع معارف عصره فى الأدب والدين والعلم والفلسفة . قال

---

(١) طالع المنتخبات ص ٩٤ – ٩٦ .

أبو بكر أحمد بن علي[١] : «كان أبو عثمان الجاحظ من أصحاب النظّام[٢] . وكان واسع العلم بالكلام ، كثير التبحر فيه ، شديد الضبط لحدوده ، ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا ، وله كتب كثيرة مشهورة جليلة في نصرة الدين ، وفي حكاية المخالفين ، والآداب والأخلاق ، وفي ضروب من الجد والهزل ، وقد تداولها الناس وقرءوها وعرفوا فضلها . وإذا تدبر العاقل المميز أمر كتبه علم أنه ليس في تلقيح العقول ، وشحذ الأذهان ، ومعرفة أصول الكلام وجواهره ، وإيصال خلاف الإسلام ومذاهب الاعتزال إلى القلوب كتب تشبهها. والجاحظ عظيم القدر في المعتزلة وغير المعتزلة من العلماء الذين يعرفون الرجال ويميزون الأمور » .

وكانت مصادر ثقافة الجاحظ كثيرة منها أساتذته[٣] ، وما طالعه من كتب العرب واليونان والفرس والهنود وغيرهم ، ثم تجاربه ومعايناته . أما أساتذته فعرب المربد[٤] الخلّص الذين كان يصغى إلى أقوالهم ، وهو حدث ، قرب البصرة ؛ وأبو عبيدة (٧٢٨ – ٨٢٤ م) الذى قال فيه الجاحظ : «لم يكن في الأرض خارجي ولا إجماعيّ أعلم بجميع العلوم منه »[٥] والذى له من المؤلفات نحو مائتين في الحمام ، والحيات ، والعقارب ، والخيل ، والإبل ، والزرع ؛ والأصمعي (٧٣٩ – ٨٣٠ م) وهو صاحب لغة ونحو ، وإمام في الأخبار

(١) أبو بكر أحمد بن علي المعروف بابن الإخشيد من أفاضل المعتزلة وزهادهم . وكان فصيحاً له معرفة بالعربية والفقه . من مؤلفاته : « نقل القرآن » ، و « الإجماع » ، و « اختصار تفسير الطبرى » . توفى سنة ٩٣٧ م – ٣٢٦ هـ .

(٢) النظام : هو أبو إسحق إبراهيم بن سيار بن هانئ البصرى (١٨٥-٢٢١) عالم فيلسوف من كبار أئمة المعتزلة واسع الاطلاع تبعته فرقة من المعتزلة نسبت إليه وسميت « النظامية » . أما شهرته بالنظام فأشياعه يقولون إنها من إجادته نظم الكلام ، وخصومه يقولون إنه كان ينظم الخرز في سوق البصرة .

(٣) ياقوت : معجم الأدباء الجزء ١٦ ص ٧٤ – ٧٥ .

(٤) انظر الحاشية ٣ ص ١٧ .

(٥) « البيان والتبيين » ١ : ٢٢٤ . وقد جلس الجاحظ إلى أبي عبيدة كما ورد ذلك في « البيان » ٣ : ٢٠٦ .

والنوادر والملح والغرائب ، جمع شتيت اللغة فى الشجر ، والنبات ، والإبل ، والشاء ، والوحوش ؛ وأبو زيد الأنصارى (ــ٨٣٠ م) وهو من أئمة الأدب ، غلبت عليه اللغة والنوادر والغريب ، وقد ألّف فى القوس ، والترس ، والإبل ، والوحوش ، وخلق الإنسان ، والمطر ، والنبات ؛ وأبو الحسن الأخفش (ــ ٨٣٠ م) وهو من أكثر أئمة النحو فى البصرة . وتخرج الجاحظ فى الفلسفة والدين على أبى إسحاق النظّام (ــ٨٣٥) وقد قال عنه تلميذه : «الأوائل يقولون : فى كل ألف سنة رجل لا نظير له ، فإن كان ذلك صحيحاً فهو أبو إسحاق النظّام » . وكان النظّام مطبوعاً على البحث عن أصل كل شئ ، وعن علته ، ولا يقتصر على الانقياد والمحاكاة ؛ ولم يكتف بطلب الفلسفة والكلام بل عكف على طاب العلم ولا سيما علم الطبيعة . وكان يؤثر الجمل القصيرة فى كتابته ، ويعتبر الشك أساساً للبحث[1] ، ويستخدم المنطق فى بحثه عن الحقائق ، ويحارب أوهام العامة وخرافاتهم . وكان واسع الحرية فى التفكير ، شديد الجرأة على المحدثين ، قليل الإيمان بصحة رواية الحديث . وقد أثر النظّام فى الجاحظ تأثيراً بليغاً ، وكانت طريقته فى التحرى من أركان طريقة الجاحظ العلمية .

ولم يكتف الجاحظ بالأساتذة الأعلام بل راح ينقّب ، ويطالع ما ترجمه ابن البطريق ، وحنين بن إسحاق ، وبختيشوع ، وغيرهم من مشاهير النقلة ، قال أبو هفان : « لم أر قط ولا سمعت من أحبّ الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته ، كائناً ما كان ، حتى إنه كان يكترى دكاكين الوراقين ، ويبيت فيها للنظر »[2] .

---

(١) «الشك أساس البحث» كان مذهب النظام ، وهو المذهب الذى نادى به الفيلسوف الفرنسى ديكرت بعد النظام بثمانية قرون .

(٢) معجم الأدباء لياقوت ، الجزء ١٦ ص ٧٥ .

(ـه) شخصيته الدينية :

كان الجاحظ مؤمناً حسن الإيمان ، يرى أبداً فى الخلائق يد الخالق وحكمته . وكان معتزلياً يُشْهَدُ له بالتفوق فى الكلام والحجة. قال ابن قتيبة: «إن الجاحظ آخر المتكلمين وأحسنهم للحجة ، حتى إنه ليعظم الصغير ويصغر العظيم »[1]. وأهم النقاط التى اشتهر بها الجاحظ ما يلى :

كان الجاحظ يقول بقدم المادة على نحو ما كان يذهب إليه قدامى فلاسفة اليونان الطبيعيين . وقال الجاحظ بالطبائع للأجسام متبعاً فى ذلك آراء الطبيعيين الأقدمين من الفلاسفة ، وأوجب لها أفعالا مخصوصة ، فقال إن العباد لا فعل لهم سوى الإرادة ، أما سائر الأفعال فتقع منهم طباعاً لا اختياراً . وذهب إلى أن الله تعالى لا يقدر أن يُعرّى الجسم من أفعاله . وبسبب إثباته الطبائع للأجسام قال إن الله لا يدخل النار أحداً ، وإنما النار تجذب أهلها إلى نفسها بطبيعتها وتمسكهم فى نفسها على الخلود ، ثم تُحوّلهم إلى طبيعتها وتجعلهم جزءاً منها فلا يبقون فيها مخلدين فى العذاب .

وقد نفى الجاحظ العصمة عن الأنبياء وخالق بذلك أكثر المعتزلة الذين يقولون إن ذنوب الأنبياء خطأ من جهة التأويل والاجتهاد أو السهو ، ولا يجوز عليهم أن يفعلوا قصداً ما علموا أنه ذنب[2].

• • •

تلك كانت حياة الجاحظ وتلك صورة مصغرة لشخصيته الجبارة التى ملأت تاريخ الأدب العربى بعقلها الواسع وثقافتها البعيدة الغور. وقد تجلت تلك الشخصية فى مؤلفات الجاحظ الكثيرة.

---

(١) تأليف مختلف الحديث ، ص ٧١ .

(٢) طالع كتاب « المعتزلة » لزهدى حسن جاد الله ، ص ١٤٥ — ١٤٨ .